الوحدة الروحية

بين مصر وجاراتها العربية

للاستاذ الكبير سامي السراج

هذه محاضرة القاها حضرة الاستاذ الكبير سامي السراج في نادي نقابة المرطفين وقد استمع اليه جمهور كبير من أهل الادب والفضل . فقابلوا بما تستحق من إعجاب واستحسان . وهذه هي المقدمة التي تفضل بها فخص مجلتنا بنشرها شاكرين لحضرته مجهوده الطيب في خدمة العرب والعربية ؟ المحرر

أيها السادة

يطيب لي أن أحدثكم مرة بعد مرة عن بلاد تصاقب حدودها حدود بلادكم العزيزة وتتصل بها اتصال عروق الأذنين ، وبواشجكم سكانها مواشجة الأقربين، تلك بلاد العربية التي عمل ذوو الأوطار كثيرا للمباعدة بين قطانها وقطان وادي النيل لولا أن الوشائج قضت باستحالة تحقيق ذلك الغرض الباطل لأن للتجاور حقا ، وللغة المشتركة مناعة ، ولمصاقبة النجوم النجوم وقاية وإحكاما ، ومن ذا يستطيع أن يفصم العرى بين بلاد و بلاد تلتقي حدودها عند قنطرة شطرت عرفاً إلى شرقية وغربية كعلامة للحدود وهي قنطرة القنال ، ومنها ينسرح القطار الى الشرق ممتداً الى فلسطين من بلاد الجزيرة ، كما تنطلق أم البخار من جانبها الغربي الى القاهرة عروس بلدان الشرق العربي . و يشعرك هذا بأنه لاحواجز طبيعية من جبال شامخة الذرى أو بحار صخابة اليم تفصل بين مصر وأولى حدود بلاد العرب كما تفصل جبال طوروس واللكام بين شمال بلاد العرب وجنوب بلاد الترك . أضف الى هذا التسامح في الطبيعة ماهنا لك من اتصال عنصري لغوي خلق تهذيبي اجتماعي تناسبي أحكم العري وثبت الوطائد بين سكان وادي النيل و بين أبناء الشريعة والفرات والبلاد التي ترامت حولها، والحق الذي لامراء فيه أن اتحاد شعوب العربية اتحاد يشمل الخلق والعادات والمواهب والخصائص وقل إذا شئت الغرائز كذلك، و برهان ذلك تشاكل الحالات الاجتماعية وتشابه المستوى الفكري عند الجميع . وهو تشابه متقادم العهد وقد يرجع إلى النماذج الذي نشأ منذ الحادثة المشهورة في التاريخ بحادثة (سد مأرب) حيث تفرقت قبائل اليمن أيدي سبأ فمنها من استقر عند مساقط النيل المبارك فاتخذ منها منازل وأوطانا وأوسع في جنباتها مجال الحرث والزرع، ومنها من درج الى عمان ومسقط ومشارف الشام وأغوار الأردن كبطون كهلان وآل جفنة وقضاعة وغسان والأزد وطيء وكندة فكانوا للخالفين من

بعدهم أصولا لفروع ومغارس لوشائج واضحت القربى بين سكان وادى النيل وشعوب بلاد العربية موصولة الأسناد بالأسناد وتلاقت العلياء بالعلياء

***

وإذا رجعنا إلى عهد الدولة المصرية الوسطى التي اصطحبت بين حلقتى الاسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة رأينا للتمازج العربى المصرى أثراً فقد درجت من بلاد النهرين أرهاط من العرب سموا بعد ذلك بالهسكوس فنزلوا وادى الأورونط - وعلى نهره المعروف بالعاصى بنيت مدينة حماة بلد الملك المؤرخ أبى الفداء ومسقط رأس الكاتب الشرقى المعروف بأبى الفداء - ثم دلف هؤلاء العرب إلى وادى النيل فولى منهم أفراد حكم مصر وسموا بالفراعنة ومنهم الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة وفى بعض الاسانيد أن فرعون موسى من الملوك الرعاة ويسميه مؤرخو العرب (الوليد بن مصعب) وقال بعض الرواة إن يوسف النبي قدم مصر على عهد الاسرة السادسة عشرة

وعلى ذكر الفراعنة لا أرى مرداً للتنبيه الى حقيقة ثابتة وهى أن الفرعونية ليست بجنس بل هى لقب يطلق فى مصطلح ذلك العهد على كل حاكم يلى أمر مصر ، ككلمة (كسرى) عند الفرس و (قيصر) عند الروم و (امبراطور) عند الرومان فى طور الامبراطورية الرومانية بين سنة ٣٠ قبل الميلاد و ١٤٥٣ بعد الميلاد . وككلمة (نجاشى) عند الاحباش و (تبع) عند اليمانيين و (خاقان) عند الترك

***

وتلك هذه العهود فترات من الزمن احتدمت فيها أحداث التاريخ فما وهت العلائق بين مصر والجيران ولا رثت الحبال، فظلت وثيقة الصلة قوية الاحكام، ثم جاءت العربية مع الفتح الاسلامى فأسلست لها مصر القياد وتجمعت تحت بنودها المرامى واللهجات وصارت بلاد العربية لبعضهن لدات

وتكفلت اللغة بتحقيق مهمة التوحيد بين الجاعليها أداة الأفصاح ، والمتخذيها قاسما مشتركا للتهذيب والتثقيف وتكوين الكيان الأدبى العام ، فانجبرت الصدوع والتأم شمل الشعوب المبتوتة بين بحر الظلمات وشواطىء المحيط الهندى فأصبحت بفضل اللغة المشتركة أقرب إلى التكافل والتمازج من الشعوب التى تربط آصرة المذهب بين بعضها والبعض الآخر

وأقرب برهان تاريخى لدينا على توثق الصلة بين مصر وجاراتها العربية هو حفرة ابراهيم

باشا المصري لانتزاع بلاد العرب من قبضة الترك ابتغاء تكوين امبراطورية عربية قاعدتها مصر. فقد لقيت فكرته أعوانا أقوياء وأمراء أشداء فى بلاد العرب أسرعوا إلي محالفته ، وقاتلوا دولتهم تحت رايته ، منتظمين إلى الاستقلال تحت ظل وحدة اللغة ووحدة الخصائص والمقومات. ولولا عوامل خارجية اعتادت أن تقترص السوانح أثناء حوادث التاريخ الفاصلة لكان عام الوحدة يرف الآن بروقيه على بلاد العربية ، ولكان أمرنا منتسقا ، وشملنا النثير نظيما ، بل لكان كل منا معشر أبناء العربية يقول فى المكاثرة بجيرانه

كفى شرفا أنى مضاف إليهم وأنى بهم أدعى وأرعى وأعرف

***

ثم خذوا أيضا من هذه الفترة مافيها من علائم الوحدة الفكرية ، فان لكم من مهرجان شوقي أكبر عنوان. فقد زخرت صناعة الادب العربي فى مهرجان شوقي بالفرائد والغرر من أقطاب هذه الصناعة ، وتمثلت وحدة الفكر بينهم فى أبدع صورة ، فرحنا نعتقد أن السمط قد كمل نظامه بشعراء العربية وأدبائها دون تفريق بالنسبة الأقليمية ، وليس أروح على النفس من انتظام شوقي وحافظ والرافعي وملاط وأحمد مخرم والكاظمي والعقاد وفؤاد الخطيب والزركلي والمازني والرصافي ورامي وشكيب ومطران والجارم وعبد المطلب ومصطفى صادق والهياوى والمنفلوطى والجميل ودياب والزيات وشفيق جبر وخليل مردم وسليم الجندى والمويلحي والكرد على ولطفى جمعه والمغربى والنشاشيبي و بشارة ومن إلي هذا الطراز من جمهرة أهل الادب — ليس أروح على النفس من انتظامهم في سلك واحد وحملهم لواء الوحدة الروحية وتغذيتهم عقول أبناء هذا الجيل في كل صقع ينطق بالعربية و يباهى بأن مصر مهدها ومستقر نهضتها التي ينتشر سناها في الآفاق فحيا الله مصر التي جمعت طارف المجد وتالده ، وجعلها و بلاد العرب مصداق قول القائل

هناك المجد مقصود الأواخي وثم المجد مضروب الرواق